



بل .. أزمة الروح

عائشة رافع

اهداءات ٢٠٠٤

د / عطياء رضاه رافع
القاهرة

عائشة رافع

بل أزمة الروح

طار صادق للنشر

ص. ب. ١٢٠، سيدى جابر

الإسكندرية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٩٩٢

المحتويات

مقدمة	٥
هذا الكتاب لماذا ؟	٩
أمتي.. أمتي!	١٣
نحن . . والكتاب	١٩
كانوا يقرأون القرآن!	٢٧
أفتنى يا سيدى	٣٥
لسنا وحدنا!	٤٥
الواقع . . والحب . . والقانون	٥١

مقدمة

عاقنى كثيرا قبل أن أتخذ الخطوات الفعلية فى إخراج هذا الكتاب إلى النور .. أمران:

الأول هو إننى خشيت وأنا أخوض فى الحديث عن أمور تتعلق بالدين الإسلامى العظيم أن أكون على الأقل أمام نفسى كمن يعطى لنفسه حقا أكبر من حجمه.. أو يتناول فى الحكم على أمور يجرؤ لفرط جهله على النطق بها وهو فى حضرة عالم عظيم..

والثانى هو إحساسى بأن «الكلمة» على عظمتها .. صارت موضعا للوصف بأنها مجرد «كلمة» وما أكثر «الكلام».. حتى بتُّ فى كل أمورى أؤثر الصمت على «الكلام» .. وأبحث عن الفعل دون «الكلام» وأخشى ما أخشى أن تكون حرفتى هى «الكلام».. فلا تلبس الأفكار والإنفعالات تتسلل من عقلى إلى الورق .. وتأمر القلم بأن يحررها من سجن ذاتى وكيانى الأوحده.. حتى يخيّل إلى أنى قللت من شأنها بأن صارت «كلاما» وما أكثر الكلام! لا أستطيع أن أثق أننى وجدت حلا دائما لهذين النوعين من الإحساس.. لكنى

على الأقل وجدتنى أتعامل مع كل منهما، بصورة أراحتنى مؤقتاً
أولاً.. إننى حين أتناول فى هذا الكتاب أى أمر من أمور الدين
الإسلامى فإننى لا أتناوله من منطلق الإدعاء بالتفقه فيه أو من ينسب
نفسه لفئة «العلماء» أو المُلمِّين بكل الإتجاهات فى العالم الإسلامى
على مدى الزمان أو باتساع المكان.. لكنى أتحدث فقط من موقعى
وحجمى كإنسان مسلم عادى لا يستطيع إلا أن يكون له إنفعال
بأمور دينه.. يفكر.. يشعر.. يحار.. يتأمل فى نفسه وفيمن حوله..
يقبل على شىء وينفر من آخر.. فلم لا يشرك إخوانه فى الإنسانية
فى مشاعره وأفكاره ولكم نحن فى حاجة إلى التواصل أو التواصى..
وحين أنقد حال المسلمين فلا أتفوه بكلماتى من موقع علوى أعطى
لنفسى الحق فيه فى أن أصدر أحكاماً على آخرين أنفصل عنهم
ولكنى أحدثهم بما أحدث به نفسى ليل نهار خوفاً ورهباً.. وأنتظر
كلمات هؤلاء أخوة وأحباب طالما أحب الجميع الحق وأحب
الجميع أن يكونوا متتمين حقاً وفعلاً وقلباً وعقلاً ووجداناً إلى دين
الفطرة.. فما المانع أن يتسع لى أخوة مسلمون؟ فلا أكتب.

ثانياً.. للكلمة قدسيته.. مهما كانت موضعاً لعبث العابثين أو
عنواناً لجاهلين.. أو يقولها نفر من الخاملين المتكاسلين.. سيظل
هناك فرق بين «كلمة» و «كلمة» بنفس قدر الفرق بين «إنسان» و
«إنسان» على قدر ما بكل منهما من صفات نقية أو خبيثة..

فليكن جهدى إذن واتجاهى لا لرفض «الكلمة» وخصامهما
ولكن للسعى إلى إكتساب ملامحها.. وإعلاء قدرها بنفس القدر
الذى أتمنى أن تكون عليه الأفكار والمعانى التى تعكسها الكلمة..
والأفكار والمعانى لن تكون إلا بقدر صاحبها . الكلمة حق للجميع
طالما أن الله لم يحرم إنسانا مهما كانت ضآلته فى القدرة على
التعبير..

وطالما إننى أدعو كل إنسان بقدره إلى أن يفكر ويعبر عن
تفكيره وأن يستمع لمشاعره وأن يوصلها لمن حوله فلماذا لا أبداً
بنفسى!.. فإن الإنسان إذا لم يعرف كيف يخلق حواراً بينه وبين
نفسه .. فكيف يعرف أن يستمع إلى الآخرين أو يتواصل معهم؟
ولكم نحن بحاجة إلى الحوار.. فوجدتنى أحدثك!. وأنتظر «كلمتك».



هذا الكتاب لماذا ؟

إننا.. هذه الأمة الإسلامية في فترة حرجة من التاريخ.. أفرادها صرعى بين تيارين يُظن أنهما طرفا نقيض وهما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة وأقصد بها الإنغلاق من جانب و«التغرب» من جانب آخر.. فكل وجه منهما بتداعياته المختلفة هو «هروب» من الواقع.. من يقولون بالأصولية يهربون إلى ما يظنون «الماضي».. ومن ينادون باللاحاق بحضارة الغرب يهربون إلى ما يظنون الخلاص من الجهل والتخلف.. وكل له أسبابه ومنطقه.. أمّا من يطلق عليهم لفظ المسلمين المعتدلين فصوتهم أقل تأثيرا من هذه الفئة وتلك.. ونحن بحاجة إلى دعم موقف الإتيان والإستواء بلا أى تنازل عن قيم الدين الإسلامى وبلا تخلف عن ركب الحضارة الإنسانية وما وصلت إليه من تقدم علمى فى جميع الإتجاهات..

إن الإتيان الذى أبغى أن أظهره من خلال هذا الكتاب هو هدف للإنسان المسلم السوى الذى تتصالح فيه وتتضافر قيم الدين دون رفض للتفكير العلمى ولا يتصارع داخله الماضى مع المستقبل..

لأنه هو بعقله وقلبه والواعين يتفاعل معهما ويبدع تفاعله فى صورة عمل منتج.. فيه صالحه والصالح العام لا يتناقضان..

ومن أجل أن يكون الإنسان المسلم أهلاً لهذا الإستواء.. وليكون كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء.. ولا تعصف به الرياح من هنا أو هناك فهو يحتاج إلى القوة.. والقوة تأتي من إحساسه بأنه يعرف طريقه وطريق المسلم هو دوماً الإتجاه إلى ما هو أحسن معنويًا وماديًا.. والأحسن هو العلم والعمل والإرتقاء معنويًا.. وهذا موجود فى ديننا بوضوح ولكن الفرضية التى يتضمنها هذا الكتاب هو أن شيئًا ما.. أو أشياء حالت دون إستفادة المسلمين من تعاليم ديننا الحنيف.. وإنا نحتاج إلى «تجديد» علاقتنا بديننا.. ليس من خلال دروس تأتي إلينا من خارجنا أى من «رجل الدين» فحسب وإنما من إحياء روح الدين داخلنا نحن.. بالحوار والتساؤل والحيرة والتفكير وتبادل التفكير والتدبر.. نريد أن تكون معانى الدين وقضاياه جزءاً من سلوكنا وحياتنا وعملنا لا إنفصال بينهما.. وحتى يتم ذلك نحن الأفراد المسلمين نحتاج إلى التحرر من مفاهيم كثيرة شائعة تقيّد تفكيرنا وتجعل من الدين «غريباً» علينا أو «مفروضاً» من خارجنا..

وهذه المفاهيم المجمدة إنقسم الناس إزاءها إلى فريقين.. فريق أسرف فى التجمد حتى وصل إلى ذروته.. وفريق أثر الفكاهة بالتنصل من الدين تماماً والإتجاه إلى «حرية» الغرب..

وكلمة الحق والشهادة التي لا أحب أن أكتمها ولا يكتمها أحد
هي أن يدلّو كل إنسان بدلوه فيما نمر فيه في تلك الفترة الحرجة..
وعلى قدر علمي وإيماني أرى في ديننا الكريم كل جميل.. وكل
تقدم.. وكل مخرج من المهالك.. ولكن كيف نقرأه من جديد؟!
وكيف يوجد لدينا حتى الدافع لقراءته؟! في هذا الكتاب لمحة من
الدعوة لذلك.. وفيه مع أفكار متعددة تتردد بيننا في هذه الفترة -
نبته لهوية إسلامية تحفظ كرامتنا وتدعونا لأن نجد لأنفسنا في هذا
العالم المتصارع طريقاً سوياً.. أصيلاً.. منيراً.. يدعو إليه كل من
أحب الله ورسوله وإنعكس حبه في كلمة صادقة.. وفعل خير..
وعلم نافع..



أمتي . . أمتي !

كشفت الأيام والشهور الأخيرة عن كل ما هو مستور وكان مستورا من وهن وضعف الأمة التي تحمل عنوان «الأمة الإسلامية».. وراح علماء المسلمين ومفكروهم يجمعون على أنها تعاني من مرض خطير ذهبوا في تشخيصه مذاهب شتى.. لكن أعراض المرض ظاهرة للجميع.. تستصرخ المسلمين.. هل من منقذ؟

فيصف أحد العلماء البارزين وهو الشيخ محمد الغزالي الأمة الإسلامية بأنها صارت «حضاريا وخلقيا وإجتماعيا آخر أهل الأرض في سلم الإرتقاء البشري» ويقول في كتابه «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل»:

«شعرت أن مستقبل الإسلام في مهب الريح إذا بقي الفكر العفن يحتل آفاق الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية على النحو الذي ينشره بعض العلماء! إن الإسلام سيحكم عليه بالطرد من كل ميدان إذا بقي مصوره يبرزونه في تلك المعالم القبيحة التي لا يعرف غيرها الدهماء من المنتسبين إلى الإسلام».

وأصبح حال المسلمين حالاً محل انتقاد من داخلهم قبل خارجهم - فيكتب الإمام الأكبر للجامع الأزهر فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق في مقال بجريدة الأهرام (١٣ يوليو ١٩٩١): «صار بأس المسلمين بينهم شديداً.. وإنساق هؤلاء وأولئك حتى صاروا وقوداً للحرب وإمعات للفتن.. وكل يدعى أنه يعمل للإسلام وبالإسلام وما هم في هذا وذاك في شيء.. وإلا فليكيف أولئك المتنازعون في الجزائر وغيرها من بلاد الإسلام عما وقعوا فيه وليذكروا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض».

ومع الحديث الشريف وجدتي أذكر كلمات الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو يخاطب قومه أيام الفتنة الكبرى: «واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أغراباً وبعد الموالاة أحزاباً ما تتعلقون من الإسلام إلا بإسمة ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه» وفي قول آخر لإمام المتقين «وانه سيأتي عليكم من بعدى زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل.. ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله.. وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلى حق تلاوته.. ولا أنفق منه (أروج) إذا حُرّف عن مواضعه.. فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس.. وليس فيهم.. ومعهم.. وليس معهم».

وتساءلت ترى هل يتحدث الإمام علي عن زماننا الذي قرأ

بحكمته إرهاباته فى زمانه هو؟

عموما.. الجميعُ الآن يقر بما وصلت إليه الأمة من تخلف..
ويجمع أيضا.. ويجمع بحق أن هذا التخلف ينافى شكلا وموضوعا
كل ما جاءت به تعاليم ديننا الحنيف وهو الذى يدعو إلى عكس
ما وصلنا إليه تماما.. وكيف لا.. وهو الأكثر حثا على طلب العلم
والمعرفة.. وعلى العمل والإجتهاد والإتقان.. وعلى الخير والتحاب
والعدل والسلام والجمال والإيثار.. وكل ما يملأ أرجاء هذا الكون
من أقصاه إلى أقصاه من فضائل الدنيا والدين..

إذا كان هناك إجماع على هاتين الحقيقتين أى ما وصلنا إليه
من تخلف.. وأن جوهر الدين منها براء - فما أخرجنا إلى معرفة
العلة الأساسية التى بُذرت فينا وترعرعت نحن أبناء هذه الأمة..
والداء الذى إستفحل فى كيانها عبر السنوات..

والأقسى والأمر أنها لم تكتف بعدم الإستفادة مما لديها من
تعاليم الدين بل إنها تستعمله ذريعة وحجة لإتباع أساليب وسلوك
هى بعينها التى أوصلت إلى ما هى فيه من محنة أو نكبة.. حتى
أن وصل إختلاط الأمور فى الفترة الأخيرة التى سمّاها البعض «الفتنة
الكبرى الثانية» أن يكون التناحر بين فريقين يدّعى كل منهما أنه
المدافع عن الإسلام وكل منهما أنه فى جهاد مقدس.. وكل منهما
له مُفتوه ومُفكروه.. يستنفرون المسلمين لجهادهم المقدس!! ووقف

فريق ثالث لا يعرف حتى أن يجيب: هل كان الحق.. كل الحق..
فى جانب أى من الفريقين؟

«لماذا لم تستفد الأمة الإسلامية من دينها حتى بات واقعها أمام
نفسها وأمام العالم مخالف تماما لحقيقة الدين وجوهره؟»

أرى فى التوصل إلى جواب على هذا التساؤل مفتاحا لعلتنا..
وبالتالى أول خطوة نحو العلاج.. ولا تكفى الإجابة البسيطة والدعوة
القائلة: هيا نعمل بتعاليم ديننا.. هيا نتذكر أنه يقول.. ويقول..
فالملايين يا سيدى تحفظ التعاليم والآيات والأحاديث عن ظهر
قلب.. والمساجد ممتلئة بالمصلين.. والكعبة المشرفة لا تخلو ليل
نهار من الطائفين.. ولا يغير ذلك من الأمر شيئا.. بل إن هذا الأمر
فى حد ذاته هو المدعاة للتساؤل:.. لماذا وصلت هذه الأمة لهذا
الحال.. وهؤلاء الملايين يملؤون المساجد؟ إن الإجابة تحتاج لجهد
الكثيرين الصادقين.. وعملا بما أدعو إليه الجميع.. أبدأ بنفسى
فأقول إن قراءتى الأولية فى حالنا كمسلمين تقول بأن العلة هى
أنها «أزمة الروح»..

لأن كتابنا الكريم وسنة رسولنا الكريم محافظ عليها.. المناسك
كأشكال للعبادات تتناقل عبر الأجيال.. وتنتشر بين سكان هذه
الأرض.. شرقا وغربا.. أعداد المسلمين تزداد.. وتزداد.. ولكن..
ولكن.. هو جسد بلا روح.

فقد صار المسلمون ينشغلون بأشكالٍ وقوالبٍ يصبُّون فيها أنفسهم دون وعى بأن الهدف لكل شكل هو التعبير عن معنى.. عن خلجة للروح.. نسي المسلمون أوتناسوا أن هذه الروح بين الضلوع هي التي تطلب غذاءها من المعاني الكريمة وتسعدُ بها.. وصار الدين يتعامل معه كأوامر ونواهي تفرض من الخارج.. وليس علينا إلا التنفيذ.. تنفيذ الشكل.. حتى لكأن المسلم لا يحتاج من الدين إلا أن يخبره عن طول الجلباب.. وإطلاق اللحية.. وحلق الشارب.. أو دم البعوضة!

إنها «أزمة الروح» التي تجعل المسلمين حتى وهم يحاولون التأسُّ برسولنا الكريم ينشغلون بما كان عليه من أمر ملبسه ومأكله والشكل الظاهري لعاداته وتصرفاته.. وأعجب لماذا لا يكون الإنشغال بمحاولة إدراك وطلب المعاني والقيم الروحية التي جعلت منه بشرا أفضل من كل البشر؟ وأكمل خلق الله كلهم.. أراد لأمته كل الرقي وقال «إن ما أعطيته فلاأمتي» ماذا أخذنا أو إكتسبنا ممن كان خلقه القرآن؟! وكيف وصلنا إلى ما نحن فيه وقد قال لنا «تركت فيكم ما لا تضلون به من بعدى أبدا.. كتاب الله وستى»؟

إننى على هذه الصفحات التي أنشر فيها جانبا من قراءتى.. تأملى.. لا أقول إننى أصل إلى نتائج وتعليلات مؤكدة.. ولكنها دعوة للمشاركة فى التفكير وفى التأمل.. وإذا كان هناك من يتفق معى فى أنها حقا «أزمة الروح».. فلماذا لا نجتهد لنعرف ونبحث

عمن قتل الروح.. على مدى التاريخ.. والآن؟

بداية وعلى قدر إجهادى أقول إننا بحاجة إلى أن نخلق «تعاملاً بكرة» مع ما هو مقدم فى هذا الدين.. نحاول أن نجعل من أنفسنا إنساناً حر العقل والإرادة فى رؤية والإحساس بكل ما هو فى كتابنا الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاءت كحقائق.. وليس من خلال أسوار حديدية قوامها إجهادات السلف والمعاصرين - مع كل إحترام لعلمهم والأخذ به من منظور التواصى بالحق ولكن لا يقلل من شأن أحدهم أن يقبل أو يرفض فكره.. لأننا نريد أن نكون إنساناً يستهدف لنفسه تربية حاسة الذوق والتمييز.. ولا يتعامل بالتالى مع المفاهيم الموروثة.. والمنقولة.. والشائعة وكأنها «منزلة» لا يملك حيالها إلا القبول..

لأنّ هذا التعامل مع ما تناقل من السلف.. جيل بعد جيل.. ومع ما يقدمه الكثيرون حالياً تحت لواء الإسلام.. هو الذى شكّل بيننا صوراً راسخة لا تقلُّ بحال ما عمّا حدث فى عصر الجاهلية:

صنع الناس الأصنام قائلين إنهم ما صنعوها إلا لتقربهم إلى الله زلفى.. وتالت الأجيال لتحول التماثيل والأوثان من رموز للإله إلى آلهة.. عبدوها.. ونسوا الإله!



نحن . . والكتاب

أذهلتني كلمات محدثي.. هذه السيدة من أعلى الطبقات الثقافية في مصر.. تقرأ في الأدب والفكر والدين وتستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية وتذهب إلى الأوبرا في البلاد الأوروبية والأمريكية.. فإذا بها ونحن نتحدث عن معاني القرآن الكريم تشير إلى التفسيرات المختلفة التي نقرأها في المصحف الشريف وهي تعتقد أنها شرح قاطع نهائي للمعاني القدسية وكأننا مثلاً نتعامل مع أحد معاجم اللغات حين لا نعرف كلمة ما نرجع إليها فنطلع على المعنى ونحيط به وينتهي الأمر..

ذهلت محدثي وأنا أقول لها إن هذه التفسيرات المدونة هي إجتهدات وتأملات لعلماء أفاضل عبر التاريخ وضعت كعلم إشتاري.. حكمة من علماء يصح أن يستضيء بها طالب الحكمة..

لكن معاني القرآن الكريم منزهة عن الإحاطة بها وستظل دائماً وأبداً أغنى من إحاطة البشر تصل بركاتها ويلمس نورها المطهرين قلوبهم..

وذهبت أقول لها إن حديثها إن صح في جزء من المعاني الكريمة - وإن كان أيضا بشكل غير مجمد - فإنه يصح على بعض الآيات التي تشير إلى حقوق المعاملات في الميراث والزواج والطلاق.. وحتى هذه الآيات تعطى أساسا واضحا في التعامل ولكنها تبقى روح النص هي التي تتيح للعلماء القياس في بعض القضايا التي لم يرد فيها نص..

وهذا هو السر في أن كتابنا الكريم سيظل دائما وأبدا فوق الزمان والمكان.. ولكني يا سيدتي أتحدث عن الآيات التي تتطرق للمعاني والحقائق الكونية.. وحال الإنسان.. والأرض.. والسما.. والعالم الآخر.. هذه كلها أو معظمها تعبيرات إشارية لا يحق لبشر أن يدعى الإمام بمعانيها..

وضربت لها مثلا بآيات متعددة خطرت على ذهني عفوا ونحن نتحدث.. فقلت لها إن الآيات الأولى في سورة «النازعات» مثلا وهي «النازعات غرقا، والناشطات نشطا، والسابحات سبحا، فالسابقات سبقا، فالمدبرات أمرا» ذهب كبار المفسرين مثل الطبري والقرطبي والألوس وابن كثير وابن عباس وغيرهم في تفسيرها مذاهب شتى فقل إنها الملائكة.. وقال آخرون لعلها النجوم.. وقيل الرياح.. وقيل الخيل.. وذهب البعض إلى أن «النازعات» هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار.. وقد قرأت لأحد رجال الله الصالحين مؤخرا تأملا في هذه السورة يقول - على عكس

التفسير السابق تماما - قد تكون النفس التي تنزع إلى الحق وتجسد أن الحق بحر لجي يغرق فيه الإنسان.. فتشيط طلبا له.. وتسبح فيه.. وتتسابق رغبا ورهبا..

وتلاحقت في ذهني آيات وآيات.. لا أعرف كيف تسارعت وقفزت إلى لساني وأنا أتحدث إلى هذه السيدة.. أقول لها عن آيات تأملت فيها وحررت كثيرا.. منها استخدام لفظ «كلمة» و«كلمات».. فهذا هي الآية ١٧١ من سورة النساء «إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته».. كيف يكون الإنسان نفسه كلمة؟ كلمة لله؟ ثم في سورة الكهف آية ١٠٩ «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدادا» ما هي كلمات ربي؟ هل هي الإنسان.. قياسا على وصف عيسى بأنه كلمة؟ هل هي كلمات القرآن؟ وكيف لا تنفذ ونحن نعرف أنها لو كانت «الكلمات» يعني «الألفاظ» لحصرناها وهي المحددة المعينة؟

قد نفهم أن «الكلمات» هي الحكمة.. ولكن الأمر على كل حال ليس مغلقا.. وقد ذكر اللفظ «كلمات» في مواضع شتى بمعان بالغة الثراء.. فقل في سورة البقرة آية ١٢٤ «وإذا ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين».. «الكلمات هنا فهم أنها «قول» الله تعالى أو «حديثه» لإبراهيم الخليل كيفما أراد جل جلاله أن يوصله

إليه.. فكل آية وردت فيها «كلمة» أو «كلمات» ستجد بها من المعانى الكثير وليس الأمر مجرد بلاغة لغوية.. بقدر ما تحمل الكلمة من دلالات معنوية..

إمتد الحديث وأنا أقول للسيدة التى بدا إنها تستمعُ إلى شيء لأول مرة.. إن أبسط الألفاظ التى ترد فى كتابنا الكريم لا تنضب من المعانى العميقة المدعاة للتأمل.. فها هى كلمة «يسجد» فى الآية ١٨ من سورة الحج «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن له فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء».. كلمة «يسجد» هذه قيل فيها «تسجد ظلالهم» وقيل السجود بمعنى الطاعة.. ونحن نعرف السجود بمعنى الحركة المعينة التى نؤتيها فى الصلاة.. ولكنى فى النهاية أتساءل ما هو المعنى الذى يربط بين الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب.. ثم كثير من الناس.. وإذا كانت الطاعة فهل تدخل فيها هنا الإرادة؟ قد يطيع الإنسان أولاً يطيع ولكن هل تفعل مظاهر الطبيعة ذلك أيضاً؟ أم أن «السجود» كمعنى تشترك فيه كل هذه المخلوقات.. معنى يستحق مزيداً من التدبر؟

فى سورة النور آية ٤١ «ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون».. ما معنى الصلاة والتسبيح هنا؟ وكيف يصلى من فى

الكون؟ وهل تقتصر الصلاة على الصورة التي أمرنا بها أم أن كلمة «صلاة» أوسع في معناها.. وأغنى من إرتباطها في الأذهان بالقيام بحركات جسدية معينة وفي صورة محددة؟ قد نفهم أن هناك معنى قائما في الكون إسمه «صلاة» يمارس من قبل كل المخلوقات في هذا الكون ومنها الإنسان.. آيات.. وآيات لا يمل الإنسان من سياقها.. كلُّها تقول إن معاني الكتاب الكريم لا يمكن أن تحدُّ أو يعطى كائن من كان لنفسه الحق في أن يقول «إنها تعنى كذا وكذا» بالقطع.. وربما هذا ما يجعل الفقهاء دوما يقولون في نهاية حديثهم «والله أعلم».. فهذه قولة حق.. لأن كل إنسان يقول ما يفتح الله عليه بإجتهاده وتدبره وبما تسمح به المعاني اللغوية للألفاظ.. لكن في النهاية إن الله وحده هو الذي يعلم.. ومبلغ غاية الإنسان أن يمن الله عليه بالعلم الحق..

تركت السيدة وسؤال يلح على عقلى يؤرقه.. من أين جاء الإنطباع عند الناس بأن معاني القرآن محدودة فيما نقل من تفسيرات حتى أن الكثيرين لا يحاولون أن يتأملوا في الآيات بالأمل والطمع في الله أن يفتح عليهم دوما بمعان جديدة؟

أعترف أنني في محادثات تلت مع بعض الأصدقاء والمعارف حاولت أن أستطلع هل يوجد من يفكر مثل هذه السيده؟

إكتشفت أن هناك الكثيرين.. ووجدت أن حتى الذين يؤمنون

ويقدرّون المفهوم القائل بأن المعاني الكريمة لا تحد ولا تحصر.. فهم يقبلون ذلك كمعلومة فكرية.. لكنهم في النهاية.. يكتفون في تعاملهم مع الكتاب الكريم بإستطلاع المعاني من المتاح لهم من تفسيرات ويكتفون به.. ولا يرون منطلق القراءة بأنهم هم أنفسهم يمهّدون سرائرهم لتلقى معاني قد يفتح الله بها عليهم من خلال التواصل مع عالم الكتاب الكريم بكل قدسيته وجلاله التي يفيض الله منها على عباده المتقين.. تعاملهم مع المعاني.. أراه تعاملًا بلا روح.. لأنّ قارئ الكتاب يفرض على نفسه سياجًا من وصاية التفسيرات المتاحة التي يكبل بها نفسه وينس أنها ليست أكثر من نوعٍ من التأمل لبشرٍ آخرين وعلم وتواصي دون فرض.. أوقصر.. أوقهر أو إحتكار؟!

لست بحال ما في موضع الجدل عمن يحق له أو لا يحق تفسير القرآن الكريم.. كعلم متخصص.. لكنني أتحدث عن علاقة أي مسلم بكل درجاته من العلم والمعرفة مع «كتاب» أرسل للناس كافة.. لماذا خلت الروح من هذه العلاقة؟ لماذا سلب الإنسان نفسه حق الإحساس بأنه يستطيع أن يكون مستقبلًا للمعاني الكريمة اللانهاية.. دون وصاية من أحد.. فقط حين يعد هو نفسه لهذا الإستقبال.. بإيمانه بأن الله يقول له في كل حرف الكثير والكثير..

فإن بدت الآيات وكأنها لغة من لغات البشر إلا أن قدسيّتها تنبع من أنها حديث الله للبشر يدعوهم فيه إلى عالم من الطهر

والنور.. تستخدم فيها الألفاظ كرموز للمعاني العلوية.. وعلى كل
إنسان أن يسعى بنفسه.. بقدراته.. وطوال عمره لأن يتعلم لغة
الحق ليفهم رسالة الحق إليه..

صار الكتاب بيننا مثله مثل كل تعاليم الدين شكلاً.. ورسمًا..
ولفظاً.. بلا روح.. نحفظه في ورقات.. ونردد آياته بالسنتنا كألفاظ..
ولا زلت أبحث عن قتل الروح.



كانوا يقرأون القرآن!

فهل نقرأه نحن؟

ها هو عالم مراقب لأحوال المسلمين وهو الشيخ محمد الغزالي يقول في كتابه «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل» : «إنني أجزم بأن فلسفة الكون في القرآن الكريم بعيدة جداً عن أفهام قرائه وأن جمهرة المسلمين لا تسمع من هدير الآيات شيئاً طائلاً، فهم «كمثل الذي ينطق بما لا يسمع إلا دعاءٌ نداء..».

تنتقد يا سيدى وأنتقد ويتقدون حال الأمة الإسلامية فأعود وأقول إننا بحاجة إلى الإجابة عن هذه التساؤلات.. لماذا لم يستفد المسلمون من دينهم ومن كتابهم؟ هل إذا عدنا للبداية نستطيع أن نعرف من قتل الروح؟

في محاولة لتلمس تعامل المسلمين الأوائل مع الآيات الكريمة.. نستشعر أن المسلمين وهم على فطرة الدعوة ما كانوا ينظرون إلى هذا الكتاب ككلمات مرصوفة بل كانوا يتعاملون مع الآيات التي

كانت موزعة هنا وهناك بين حفظة القرآن - قبل قرار جمعه وبعد جمعه أيضا في عهد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب (ر) - باعتبار قراءتها «ذكرا» و «تعبدا» يستفيدون منه بقدر ما يصدق كل منهم في أن يكون أهلا بصفائه لأن تُحيى الكلمات الكريمة قلبه وتطهر روحه وتأخذه إلى عالم الطهر والنور..

كانت القلوب تهتز لسماع القرآن بقدر ما يكون القارىء له متواصلا بقراءته مع هذا العالم العلوى.. فإن كان المستمع مؤمنا يزداد إيمانا وعلوا.. وإن كان مؤهلا لأن ينشرح قلبه للإيمان إنجذب لقوة هذا النور المتدفق من «روح» القارىء لا لسانه.. وإنضم لصفوف المسلمين.. وإن كان ممن غلبت عليه قوى الجهل والظلام.. فر هاربا.. منزعجا.. شاعرا بهذه القوة التي يخشى على نفسه منها.. السر وراء هذه القوة لم تكن الكلمات كألفاظ صماء.. ولكن كانت مرتبطة بإيمان الشخص القارىء والمتواصل مع عالم القرآن الحقيقى..

لم تكن هذه القوة خافية أو نادرة.. بل ظاهرة وسائدة حتى قيل إن محمد ﷺ كان ساحرا.. وكيف كان يمكن لكافرٍ مظلم الروح أن يفهم شيئا آخر وقد رأى كلمات يتفوه بها الرسول ﷺ تفعل في الناس فعل السحر..؟ وتقلبهم من حال إلى حال؟

تاريخ الإسلام مليء بالأمثلة حول قوة الآيات وما تفعله بالآخرين

(إسلام عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ وغيرهم)

حث الله تعالى ورسوله الكريم جميع المؤمنين على تلاوته وحفظه وترتيله.. وتدبر آياته والتعبد به وكان المسلمون جميعا يجتهدون في تفسير الآيات ويشجعهم الرسول على ذلك.

وربما يكون أكبر دليل على أن ثراء الآيات الكريمة وعدم حصرها في معان محددة كان هو الفهم السائد والبديهي لدى جميع الأمة.. هو وجود هذا العدد الهائل من المفسرين والمجتهدين في العقود الأولى من بدء الدعوة.. وربما حتى القرون الخمس الأوائل..

إذن كان «التعامل الروحي» مع الكتاب الكريم هو الأصل.. وكان الإعراف بلا نهائية المعرفة في معانيه ومحاولة الأخذ والانتفاع بلا حدود هو الأصل.. وكانت محاولة كل إنسان لرقى به.. وتواصل مع العالم اللامادي هي الأصل.. وكان الحق لكل إنسان أن يفهم ويفهم ما يجود الله به عليه بقدر إجهاده وكذبه هو الأصل.. فأين نبتت بذور التجمد؟

كما أنها طبيعة الإنسان - فيما يبدو - أن يستعمل كلمة الحق يريد بها باطلا فقد استغل أعداء الإسلام أثناء الفتوحات والإختلاط بالأمم المختلفة ثراء المعاني في القرآن الكريم في تأويل الآيات بما يبدو متفقا مع أهوائهم المغرضة.. وخاف علماء المسلمين من

المفاهيم المدسوسة أن تنتشر بين الأمم فمنعت الإجهادات وصار التركيز على ما يسمى «الفهم الكلامي للقرآن» أى تأييد الوجهه البسيطة الظاهرة للكلمات.

ومع إتساع مطالب الحياة وإزدهار مدنية العرب ووجود أمور لم تكن موجودة فى عصر الرسول نشأ علم «أصول الفقه» والتفسير التى تعنى بالأحكام الشرعية لتنظيم حياة المسلمين.. كما نشأت علوم البيان والمعانى.. والبديع.. والبلاغة.. وأحكام اللغة لحفظ القرآن الكريم من إضطراب اللسان العربى.

وشهد العصر الحالى ما يسميه البعض بالتفسير العلمى للقرآن الكريم وهو التأمل فى آيات تكشف عن حقائق علمية كثيرة لم تكن معروفة أثناء نزول القرآن قبل أربعة عشر قرنا ومنها ما يذكر دائما عن علم الفلك.. والأرض.. والأجنة.. إلخ.

ومع كل الإتجاهات التى نشأت فى تعامل المسلمين مع كتابهم الكريم بقى فريق من الزهاد أو المتصوفة يدركون أن الجانب الروحى قد أهمل.. وذهبوا يدنون تأملاتهم وفهمهم الشخصى فى كتب عرفت فيما بعد بالتفسير الصوفى للقرآن.. وظل هؤلاء مدركين ومؤمنين ومتعاملين مع كتاب الله ليس كمجرد ألفاظ.. وليس فقط مصدرا للتشريع.. ولكن أساسا للحياة نفسها.. حين ينظر إليه ويتجه إليه كوجود حقى حى به من الحقائق والمعانى والنور مالا نهاية

له.. ويعطى كل طالب من نوره وعلمه على قدر قدرة هذا الطالب
لإستقبال نفحاته.. قدرة تتزايد كل يوم لأن وجود هذه العلاقة
الحية المتقدة دوما بين الإنسان والكتاب تخلق له هدفا واضحا
نصب عينيه وهو أنه كلما ترقى درجة فى طريق الصفاء والصدق
والنور كلما فهم أكثر.. ورق أكثر.. وصفاء.. وإرتوى وعاد إنسانا
أفضل.. دائما أفضل.. لأنه بكل حصيلة سيداوم على الطلب فيعطى
قدرا أكبر.. يرقه أكثر.. فيكون أفضل.. ويعود فيطلب بلا إنقطاع..
والآن وأنا أستعرض أمام عينى.. ومعك.. هذه النبذة المختصرة
جداً عن تعامل المسلمين مع كتابهم الكريم منذ نزوله على رسولنا
العظيم وحتى ما وصلنا إليه.. كان هدفى هو البحث فى التاريخ
عمّن قتل الروح فى أمتنا الإسلامية.. وإنهى بها إلى جسد مسجى
تحسبه مليئا بالحياه.. فتجده يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وأحسبني أرى الطلقة الأولى من السلاح الذى ارتكبت به جناية
القتل قد خرجت حين صار القرار الذى يكتفى فيه بالتفسير الكلامى
للقرآن قاعدة وليس إستثناءً فصار معه الحجر على الفكر قاعدة..
ترسخت مع مرور الوقت.. ليصبح مجموع ما توصل إليه السلف
على مدى خمسة قرون سياجا فكريا أطبق على أنفاس الأمة فخنقها..
وتوالى الطلقات من جيل بعد جيل.. تهدر إحساس الإنسان
بأن له عقلا حرا.. وقلبا.. وروحا.. كلها مكلفة بالعمل.. بالتفكير..
بالإحساس.. بل وبالحياة.. فحين تعطلت.. يست.. وشئت..

إن الحديث عمّا وصلت إليه العلاقة بين الإنسان وبين كتاب الله.. من حيث فقدان الروح.. لا يعنى أن العلوم الفقهية واللغوية والبلاغية التى نشأت هى فى ذاتها محل إنتقاد.. بالعكس إنها صورة حية لأنّ كتابنا الكريم يأخذ منه كل إنسان ما يحب لنفعه وما ينفع به الآخرين..

ولكن الإعتراض هو أنّ نقف عند ما أخذه إنسان ما أو مجموعة من الناس ونقول هذا يكفى.. فما دمنا أحياء فسنأخذ من القرآن إلى الأبد لأنه يعطينا كما نحتاج وكما نجتهد.. وإحتياجاتنا متجددة دوما.. على مستوى الفرد.. وعلى مستوى المجموع.. والعطاء مرهون بإجتهادنا..

فكيف يعقل أن نقول كفى وما لدينا هو نتاج فكر أفراد عاشوا فترة من الزمان كان لها معطياتها وظروفها.. نستفيد من نقائهم وعلمهم.. ونضيف إليه.. نتفق.. ونختلف.. ونلغى.. ونؤكد.. ما جاؤا به.. ونتجدد نحن.. ونعطى.. ونضيف.. ويأتى من بعدنا متحررين مما قلنا يؤيدونه أو يرفضونه.. أو يختارون منه.. ويضيفون إليه.. لتبقى الحياة.. لتبقى الروح.. بلا وصاية من أحد على أحد.. ولكن بتواضع بالخير وبالحق.. وبرؤية الأحسن والأفضل.. كل فى موقعه..

علماء الدين يقدمون لنا العلم وما يشق علينا.. علماء اللغة..

علماء أى فرع من فروع العلم إن كان بعلمهم ما يقرأون فيه من القرآن ما لا يستطيع الفرد العادى أن يدركه فليقدموه لنا.. ما المانع؟.

ويبقى مع هؤلاء الإنسان بطبيعته البسيطة.. العابد الذاكر الذى يتلو القرآن ويتدبره بهدف العبادة.. أو بالطمع فى الله والأمل أن يتفهم من معانيه ما يشرح صدره ويعطيه نفحة روحية ترتقى معها إمكاناته فى طريقه وطلبه دوماً أن تجعل منه رحلة الحياة إنساناً أفضل..

فالتعامل مع كتابنا الكريم يجب أن يتم على مستويات متعددة كل حسب إمكاناته وأهدافه.. لكن الشئ المشترك بين الجميع هو أن يكون التعامل بالروح وهذه الروح تعطى الحياة للعقل ليتدبر.. وللجوارح لتعمل.. وللقلب ليصلح شأنه.. إن الحديث عما وصلت إليه العلاقة بين الإنسان وبين كتاب الله ليست إلا جزءاً من علاقة المسلمين وتعاملهم مع دينهم ككل..

فإذا كنت فى قراءتى لأحوال هذه الأمة وأنا واحدة منها لا تنفصل.. يعينى ما يعيها وينقضى ما ينقصها وأبحث عما يشفينى ويشفيها.. أرى أن أزمتها الأساسية هى أزمة فقدان الروح.. فإنى أرى ملامح هذه الأزمة فى مظاهر أخرى نستعرضها.. ثم نفكر.. هل يمكن وكيف.. تبعث الروح؟!



أفتنى يا سيدى ..

نعم فلکم یراود کل مسلم فی حیاته الیومیة أسئلة حول أحكام العبادات والسلوك فیهرع إلى کتاب فی أصول الفقه یبحث فیہ عن معلومة توجهه فیما حیّره.. فإن لم یجدھا أو لم یتیسر له لأى سبب الحصول علیها یوجه سؤاله إلى أحد رجال الدین أو الفقهاء أو لمفتی الدیار.. لیس فی هذا غرابة فکلنا یتشکک لبرهة فیما یفسد أو لا یفسد الوضوء.. أو الصیام.. أو یرید أن یقدر حجم الزکاة المفروضة علیه.. ویبحث أخیانا فی أحكام الصلاة.. الفرض.. والنوافل.. وإن أراد أداء فریضة الحج أو العمرة فهو ولا شک باحث عن مناسکها وشرائعها.. کل هذه أمور طبیعیة یمارسها کل مسلم.. وتظل مثار إهتمامه ولا یتتهى السؤال فیها ولا الحاجة إلى الفتیاء.. ولكن هل الدین والتعامل معه یقتصرُ على الإهتمام بهذه الأمور وكأن الدین قد فرغ إلا منها؟

هذا «التقلص» فی الإهتمامات الدینیة أراه شیئا مما قتل الروح لیس لأن هذه الأمور غیر هامة ولكن لأنها صارت بذاتها کیانا

مستقلاً منفصلاً عن الهدف من أدائها.. بل إبتلعت الهدف تماماً وصار ما يبرز منها هو تفاصيل وجزئيات الأداء الشكلي لكل منسك أو شريعة.. حتى صار الحوار مثلاً بين رجل أو سيده تهتم بأمور الدين وبين رجل الدين لا يخرج عن السؤال فيما إذا كان هذا «الشكل».. هذا «المظهر».. حلالاً أم حراماً..

وصار معنى «التدين».. دون أن نقصد أو نعي أو نشعر هو مقدار الإلتزام بشكل ما.. والدقة في تنفيذ هذا الشكل هي معيار حكم الإنسان على نفسه وعلى الآخرين بأنه إنسان متدين..

لست أعترض على أى شكل أو مظهر ديني.. ولا على الإهتمام به.. ولكن على أن يصبح هذا المجال متضخماً إلى درجة تلاشت معها أمور أخرى تتصل بالإنسان من داخله كروح وقلب وفكر ووجدان وهي في حاجة للإهتمام بها والإنشغال بها كجزء أساسي من حياة المسلم التي تعتبر كلاً واحداً لا ينفصل في عباداته أو مسلكه وعمله وتعامله مع نفسه ومع الآخرين..

بل إن هذا «الإنكماش» و«الإنفصال» في التعامل مع طقوس وشعائر الدين هو الذي سلب الروح من تعاليم الدين الأخرى التي لا ترتبط بشعائر ما وتركها تبلو أيضاً كأنها «مجرد كلمات» أو شكل محدد نمطي بديهي لا يسترعى حتى التأمل والتفكير والإجتهد..

فإذا ما ذكر «الصبر الجميل».. فما عاد معنى يشغل الإنسان

وكأنه بديهية أن الصبر معناه أن يبقى صامتا وصامدا على ما يمر به.. يعنى ألا يفعل شيئا فكأن كل الصامتين صابرون.. بل بات حتى يقترن بالسلبية.. وبأن الإنسان ليس فى يده ما يفعله وهو لذلك صابر أمّا إذا أتاحت له أى فرصة لدفع هذا الذى لا يريد فعلم الصبر! هو ولا شك متخلص من كل ما لا يطيق.. نكاد لا نشغل بالمعنى كمعنى جميل نريد أن نتفهمه ونعرف أين نحن منه ونطلبه لأنفسنا بغض النظر عما نفعل أو لا نفعل.. ليس فى دائرة الإهتمام أن نحاول أن نفهم ماذا يعنى الصبر؟ ولماذا هو صفة حميدة؟ ومن هو الصابر؟ وكيف أكتسب لنفسى هذه الصفة عند أى ملمة؟ وكيف أدعو بأن يهدينى الله أن أكون من «الصابرين» لا من السليبين أو الخاملين أو الجبناء أو الضعفاء أو المتقاعسين لأن هذه كلها نقائص فى حين أن «الصبر» فضيلة وإيجابية وعمل.. أو أترانى من هؤلاء أم هؤلاء؟ وكيف أعرف؟ قضية تحتاج إلى جهد وتأمل وعمل ورغبة فى إكتساب الفضيلة حتى أستطيع أن أميز..

قضية أخرى إذا ما قيل «إدفع بالتى هى أحسن».. بدت وكأنها بديهية أن يسبنى شخص ما أو يظلمنى.. وأسكت ولا أرد هذا الظلم والإعتداء أو أفرض على نفسى شكلا معينا فى التعامل.. مجرد شكل.. ولم تعد قضية التساؤل عمّ هو أحسن.. وكيف أكون إنسانا لدى ما هو أحسن.. وهى قضية «داخل» يبحث عن الأفضل.. ويحب أن يكتسب صفات أفضل فى دوام.. ليتعامل

بها..

لا يشغل المسلم مثلاً بقضية «إستفت قلبك وإن أفتوك».. كيف يمكن أن يكون القلب أهلاً للفتيا؟ وكيف أوجد هذا الحوار مع قلبي حتى يفتيني دون أن يحول بيني وبينه شيء؟ وهل معنى «فتيا القلب» أن يعطيني الضوء الأخضر لما تريده نفسي وصالحى الخاص أم الفتيا هنا لها مواصفات أخرى أكثر نزاهة وموضوعية؟ أليس إصلاح القلب قضية كبرى تستحق من الإنسان أن يشغل بها طوال عمره حتى يأتى الله بقلب سليم؟ أو ليس هدفاً أن يعمل الإنسان ويجتهد ليصلح القلب؟ ماذا أفعل إذن؟ أفتنى يا سيدى!

«تخلقوا بأخلاق الله» «كان خلقه القرآن» «وإنك لعلى خلق عظيم».. هل كل هذه بدائنه لا تحتاج أن يشغل الإنسان بمراقبة نفسه ليعرف أين هو من أخلاق الله؟ وليطلب بكيانه وقلبه وجوارحه أن يكون له حقا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة؟ وينشغل في موقفٍ ما أو مواقف حياته جميعاً بأن يستطلع مقدار ما حققه من هذا الخلق العظيم.. وما لم يحققه.. ولماذا؟ وما هو مكمّن ضعفه وكيف يكتسب كيانه «أخلاق الله»..

هل هي مشكلة عند المسلم مثلاً أن يجد نفسه يحب لنفسه ما لا يحب لأخيه في حين أن التعاليم هي أن «حب لأخيك ما تحب لنفسك»؟ إذا كان حقا يريد أن يكون كما يريد له الإسلام

أن يكون فهو بلا شك سينشغل بتأمل نفسه ومعرفة نقائصها التي جعلته يفضل نفسه على أخيه.. إذن هذه النفس يجب إصلاحها.. وإصلاحها ليس فقط بظاهر الشكل في أن «أقسم مثلاً هذا الرغيف بالعدل» وكفى ولكن في أن يكون شعورى التلقائى هو هذا العدل وهذا الحب والحرص.. كيف أكون هذا الإنسان الذى صارت هذه سمة من سماته وصفة من صفاته؟ أو ليست قضية؟!

«لكيلاً تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»

سورة الحديد - ٢٣

إشارة ساقها الله في كتابه الكريم للمؤمن.. فهل هو موضع إنشغال وحوار أن يعرف الإنسان عن نفسه إذا ما كان يأس على ما لم ينل في حياته.. أو إذا كان يفرح بما جاءه.. وهل يستطيع حتى أن يسبر غور نفسه ليعرف عنها؟ وهل هو صادق في الرغبة في إكتشافها؟.. وهل معنى عدم «الأسى» وعدم «الفرح» أن يكون متبلداً عديم الإحساس؟ أم هناك معنى كريم يريد الله لعبده المؤمن أن يكتسبه.. ولن يكتسبه.. إلا إذا طلبه.. ولن يطلبه إلا إذا أراد.. فهل هذا محل حوار وتذاكر وتذكرة وتأمل؟

«ويل للمطففين الذين إذا إكتالوا على الناس

يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون»

سورة المطففين - ١

هل بطوف بخلد كل مسلم ويؤرقه إن كان من هؤلاء المطففين أم لا.. ليس في البيع والشراء فهذا أمر واضح له معايير ثابتة ولكن في التعامل فيما بين الناس أو ليس الإنسان معرضا لشيء من هذا؟ أو ليس يبيع لنفسه أحيانا أشياء يحرمها على الآخرين؟ أو ليس يلتمس العذر لنفسه أحيانا.. ويتشدد في لوم الآخرين؟ هل حين يراقب نفسه يستطيع أن يواجهها بنقصها؟ هل إذا ما وجد منها هذا النقص يستطيع أن يدرك أن تلك علاقة عدم إستواء ديني وينشأ التخلص منه؟ هل هو هدف ذو أولوية عنده أساسا في تعامله اليومي الذي يتعرض فيه لعشرات المواقف المحتمل أن يكون فيها من «المطففين» أن يكتسب صفة العدل الداخلي التي تخرجه من هذه الطائفة؟ أليس الإنشغال بذلك شأنا من شئون الدين؟

أوامر كثيرة جاءت في كتابنا الكريم ولا نشغل بما إذا كنا ننفذها أم لا: تواصوا بالحق.. تواصوا بالصبر.. تواصوا بالمرحمة.. أن نكون من المحسنين.. المتفكرين.. الذاكرين الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم.. أن نتبع أحسن القول.. أن نكون من المتقين.. كل هذه الصفات صارت مقترنة بصور مختلفة سطحية شكلية.. وليست في حد ذاتها هدفا للإنسان من داخله يهيمه أن يكتسبها ويجاهد من أجلها على الرغم من أن كلنا يعرف أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر..

حتى كلمة «الجهاد الأكبر» لست أدري لماذا تبدو في كل

حديث عنها وكأنها تنحصر في معنى واحد وهو أن الإنسان بطبيعته يميل إلى كل الفواحش.. إلى السرقة.. إلى الزنا.. إلى الفساد ولكنه يضع حول نفسه سلاسل من حديد حتى لا يفعل لأنه مسلم يجاهد الجهاد الأكبر..

ولا نتساءل هل أن الإنسان طالما لا يسرق ولا يزني ولا يكذب ولا يرتكب أيًا من هذه الفواحش بتلقائية شديدة ودون أن يشعر بأي مقاومة.. هل هذا الإنسان لا يحتاج للجهاد الأكبر؟

إنه يحتاج للجهاد لأن الدين يريد له دوماً أن يكون في كل لحظة أفضل وأفضل والمداومة على هذه الرغبة وهذا الهدف في كل مرحلة هو الجهاد الأكبر.. وهنا يذكر في حديث الرسول الكريم «إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم سبعين مرة.. قيل أغيان أغيار يا رسول الله؟ قال بل أغيان أنواره أي أن الرسول الكامل الطاهر أكمل خلق الله كلهم كان يستغفر الله - ليس على خطأ - ولكن على حالٍ مضى هو في هذه اللحظة يرنو إلى ما هو أفضل منه.. دائماً أفضل إلى ما لا نهاية.. أليس ألف باء ديننا أن الرسول أسوتنا؟ وأن الرسول مثالتنا؟ إننا حتى معه ﷺ نتعامل بلا روح.. نقول فعل فنفعل.. وقال فنقول.. ولا ننشغل ولا نفكر.. لماذا فعل.. ولماذا قال.. وكيف يمكن أن يكون داخلنا لمحة من داخله.. وقلوبنا ذاخرة بيضعة مما ذخّر به قلبه.. أو ليست تلك قضية أن ينشغل المرء بأن يكون كذلك؟!

كل هذه الأمثلة وعشرات غيرها أراها علامة على قتل الروح..
وعلى «إزدواجية» الشخصية الإسلامية.. بمعنى أن الإنسان المسلم
على مر العصور وبدون قصدٍ مسبقٍ انفصل «داخله» عن «تعاليمه
مع الدين».. لأن الدين صار يُنظر إليه على أنه طقوس وأوامر ونواهي
وتعاليم موجهة إليه وليس عليه إلا أن ينفذها.. أمّا «داخله» فهو
شيء آخر خاص به ليكن ما يكون..

نُظر إلى قضايا الدين أيضا وكأنها تخص فئة بعينها عليها أن
تنشغل بها.. وتخرج فيها بأمور ما.. وعلى العامة أن تنفذ ولكن
ليس عليها أن تفكر أو تجتهد أو أن يكون لها أى نوع من الحرية
فى التعامل مع أمور الدين..

هنا قد يتساءل البعض ومن أين تأتي الحرية؟ إن على أشياء
محددة أفعّلها أن أصلى وأصوم.. وأفعل كذا وكذا ولا أفعل كذا
وكذا وكلها أشياء ليس فيها قولان؟! أقول نعم يا سيدى إننى لا
أقول لك لا تصلى ولا تصوم ولا أقول لك إذهب فإشرب الخمر
كما يحلو لك.. ولا أقول.. ولا أقول..

ولكن بالحرية أعنى رؤية الإنسان لنفسه.. لعلاقته بالدين وتعاليمه
ولعلاقته بالله.. فالدين لا ينفصل عن علاقة الإنسان بداخله وخارجه..
تعاليم الدين يجب ألا ينظر إليها على أنها شيء مفروض من الخارج..
وأنفذه بحوارحى وجسدى وكفى.. تعاليم الدين هى نوع من اللغة

التي يمنحها الله للإنسان حين يتعلمها يستطيع أن يتواصل مع نفسه ومع ربه..

بالحرية أعنى أن الإنسان بفطرته وطبيعته سيجد نفسه فى إحتياج لهذا الدين.. فإذا تعلم كيف يتواصل مع قلبه سيجد هذا القلب هو الطالب وهو الساعى.. ويجد الله مرشده إلى ما يسعى إليه.. إذا ما شعر الإنسان هذا الشعور سيجد أن كل أمر من أمور الدين هو سلوكه الطبيعى التلقائى.. فى حياته اليومية وفى عباداته.. لا فرق.. فهو فى يوم ينشد التعامل الأفضل فتدله تعاليم الدين عليه.. وهو يريد أن يترك الدنيا لبرهة ليتعبد فينتظر وقت الصلاة فتتيح له ذلك.. القصد هو أن الدين بتعاليمه يعطى للإنسان فرصة حقيقية فى أن تكون كل حياته.. معاشا وعبادة.. لحظات تقربه إلى الله بأن تجعل منه إنسانا ساعيا دوما إلى الأفضل.. وهذه الفرصة بهذه الصورة ليست «خيالية» ليست بعيدة عن صفاته وإمكاناته بل إن واقعيتها تكمن فى أن أى إنسان فى أى مرحلة من مراحل تطوره.. فى أى صورة من صور العصيان أو الطاعة.. الإستقامة أو التقصير.. الإنسان كما هو بخيرة وشر.. بعلمه وجهله.. بنوره وظلامه.. يستطيع أن يتعامل مع تعاليم الدين بما يجعل منه إنسانا أفضل.. إذا ما قام هذا الحوار بينه وبين هذه التعاليم.. إذا ما أدرك نقطة البدء..

نقطة البدء ليس أن أنظر إلى الدين على أنه أوامر ونواهي لست

إزاءها إلا آله.. أو جسده بلا روح.. ولكن أن أنظر إلى نفسي أولا على أنني «جسد وروح» كيان واحد.. أسأله ماذا يريد.. وأعرف منه ما يصبر إليه.. وأستمع إلى مطالبه.. ولن أجد ما يحقق مطالبه أكثر من تعاليم الدين.. وكلما نما هذا الكيان الداخلى كلما عرف أكثر كيف يستطيع أن يستفيد من تعاليم الدين..

هذا «الخصام».. و «الفراق».. و «الصمت» السائد بين داخل الإنسان.. وبين تعاليم الدين.. هو الذى قتل الروح.. لأنه من السهل أن أقول للإنسان: إركع.. إسجد.. قف.. توقف عن الطعام.. ولكن هل أستطيع أن آمر القلب أن يعمر بالإيمان؟! هل أستطيع أن آمر الروح بأن تتشوق للقاء ربها؟ هل أستطيع أن أسكب الحب فى قلب إنسان؟ هل أستطيع أن أنزع الظلم من قلب الطغيان؟

كيف يمكن أن نعيد الروح إلى كل مظاهر الدين.. فتصبح كلمة «الصلاة» تعنى «الصلاة» شكلا.. ومعنى.. وقيامًا.. وطهرا.. ووصلى.. وإنقطاع عن دنيا المادة.. وجسدا مسبحا.. وقلبا خاشعا.. فى نفس اللحظة.. لا انفصال لثانية..

الأمر يحتاج.. أظن.. إلى تغيير فى رؤية الإنسان لنفسه.. وتغيير فى رؤيته لعلاقته بالدين.. فهل نحن بحاجة إلى هذا التغيير؟



لسنا وحدنا!

لسنا وحدا المحتاجين إلى تغيير في النظر إلى أولويات الحياة وأهدافها.. وإيجاد المرجعية التي تحدد هذه الأولويات والأهداف فالعالم كله في حالة فائرة من المتغيرات حتى ليكاد كل من يتحدث عن القرن القادم الواحد والعشرين وفي أى مجال من مجالات الحياة لا يخلو حديثه من الإحساس والإشارة إلى أن البشرية وكأنها ستبدأ من جديد!! على مستوى السياسة يقولون النظام العالمى الجديد.. وعالم فيه التعاون والتكافل بدلا من الصراع والتناحر.. ما عادت الأسلحة هي التي تحدد قوة الدول ولكن الجميع يبحث عن معايير جديدة للقوة فيقول البعض إنها لـ «الإقتصاد» ويقول آخرون بل للعلم.. للثقافة.. للفكر.. وتظهر مشاكل البيئة التي تهدد كرتنا الأرضية وكوكبنا الضئيل.. لا تفرق بين دولة عظمى ولا صغرى.. ولا شمال ولا جنوب.. ولا عالم ولا جاهل فيقف الجميع مذهولا حائرا أمام ما صنعه الإنسان بنفسه بظن التقدم والتكنولوجيا.. ويتساءل كيف نقضى على الخطر الواحد الذى يهدد الجميع بلا

إِسْتِثْنَاءٌ؟

وماذا جنى الإنسان مما صنعت يداه؟.. وهل النداء بالعودة للطبيعة هو تقويض لطموحات العلم؟ ثورة المعرفة والاتصالات التي تجعل أى إنسان يلهث جاريا خلف ما يتدفق هنا وهناك من معلومات لا يلحق بها.. وهل يعرف كيف يستفيد منها؟ ووسط هذه السبولة فى كل شىء.. تنطلق من قلب الحضارة المادية والبلاد الأعظم فى التقدم العلمى والتكنولوجيا نداءات إلى الإحتياج إلى الروحانيات.. فبعض الناس هناك أدركوا أن الحضارة عندهم أشبعت إحتياجات الإنسان المادية وعملت على راحتة المعيشية لكنه يفتقد شيئا ما فى أعماقه صار يبحث عنه فى كل ما هو غير مادية.. فينجذب إلى نداءات تبشيرية بإسم المسيح.. إلى دوائر إتصال بالعالم الآخر.. ولأن الحرية فى الغرب تقدر رغبات المواطنين فإنَّ الإِتجاه إلى إشباع هذه الرغبة أتاح ظهور الأفكار الكثيرة التى ظهر بعضها من منطلق المبدأ الإقتصادى المعروف بـ «العرض والطلب»

ولا نستطيع أن نحكم على الفث والثمين منها ولكنه مجرد إشارة إلى أنَّ منتهى التقدم العلمى والمادى لم يمنع الإنسان بفطرته أن يشعر أن به إحتياجا إلى المعانى وأنه يبحث عما يرضى هذا الإحتياج.. أمَّا نحن معشر هذه الأمة.. ووسط هذه المتغيرات السارية فى هذا العالم المتقدم الذى نتطلع إليه.. ووسط المتغيرات بداخلنا.. فنحن الأكثر إحتياجا إلى تحديد الأهداف والأولويات..

والخطر العظيم الذى يترأى لى على قدر ما أرى وأتعامل مع نفسى كفرد وسط هذا الخطر إنما إزاء هذه المتغيرات تقع صرعى بين تيارين يبدو لأول وهلة أنهما ضدان وهى فى الحقيقة وجهان لعملة واحدة.. وأقصد بهما ما صرنا نسمية با «التطرف» ثم «التغرب».. فالأول هو هروب إلى «الماضى» و «السلف الصالح» كما يظن أصحابه.. فهو هروب فى الزمن.. والثانى هو هروب إلى «الحضارة المادية» فى الغرب وهو هروب فى المكان.. كما أن الإثنين يشتركان فى أنهما «هروب فكرى» من الواقع.. من الحاضر..

كلُّ خلق له عدوا من صنع خياله أخذ يحاربة ونسى فى النهاية لماذا يحارب وأى معركة يريد أن يكسبها.. وما الذى يريد تحقيقه من هذه الحرب.. من ينادون با «السلفية» الدينية.. أو من عرفوا بإسم «الأصوليين» المسلمين.. يرفضون الغرب بعلمه.. وقيمه.. وحضارته.. ولكنهم حتى وهم يرجعون إلى «الأصول» كما يقولون فإنهم لا يرونها وهم متحررون ولكن يرونها من خلال تراكمات خلفتها رؤى الإنسان عبر التاريخ.. وهم يركزون على محاربة عدوهم «الغرب» لكنهم لا يقدمون ما ينفع حبيبتهم.. وهو «المسلم» العادى الذى ينشد حياة أفضل..

ومن يرون فى الحضارة الغربية بتقدمها العلمى وحرىاتها مثالىتهم محاربون أيضا عدواً من صنع خيالهم وهو «الظن» بأن «الدين» يعرقل حرية الفكر ويضع القيود على التقدم المادى.. فصار الدين

عندهم مرتبط بالتخلف.. والتخلي عنه في رأيهم الطريق الوحيد للتقدم..

ذريعة الفريق الأول «الأصوليين» أنهم يرفضون من كونه دولة «الكفر والإلحاد».. وذريعة الفريق الثاني «المتغربين» هو أن ما تسمى «الأمة الإسلامية» لم تحقق إلا كل تخلف عن مسيرة العلم والحضارة..

هؤلاء محاربون في جبهتهم.. وأولئك يدعون إلى مسيرتهم.. هؤلاء يقولون «الإسلام هو الحل».. وأولئك يقولون بل «العلمانية».. أي «لا» للدولة الدينية.. فالعلمانية هي الطريق إلى جميع الحريات.. وإلى التقدم.. وإلى إنهاء ما وصلنا إليه من تخلف..

لست في محل الحكم على صحة أو خطأ أي فريق ولست في مجال تحليل نقدي شامل لأي تيار.. بل إنه من الطبيعي أن يكون على الساحة الفكرية تيارات وتيارات.. فنحن نرى مثلاً وسط هذين النقيضين ظاهرياً.. أو طرفي النقيض.. تياراً آخر يسمى «التيار المعتدل» وهو ما يحاول أن «يوفق» بين «قيم» الدين وبين «تقدم» الحضارة الغربية.. أي أن نتبع مبادئ الدين ولكن لا نرفض «العلم» الغربي.. هذا التيار موجود بدرجات متفاوتة.. يخفف من حدة التيارين السابقين..

وإذا كنت لست في مجال الحكم من منطلق إحترام حرية فكر

الآخرين.. وإحترام الاختلاف.. والإيمان أيضا بأنه ليس هناك خطأ مطلق أو صواب مطلق ولكنها إجتهدات البشر فى التفكير.. فإننى من موقعى كإنسان عادى وسط هذه التيارات.. تصاغ فى ذهنى رؤى تختلف أحيانا وتتفق أحيانا أخرى مع الأفكار المطروحة..

فإننى حين أفكر مع من يقولون «الإسلام هو الحل» أجد غياهب كثيرة تعوق فهمى.. لأنى كما قدمت فى الفصول السابقة أجد الواقع.. أو إستشعره يقول لى إن جسد الأمة الإسلامية جسد بلا روح.. ولا زلت أفكر كيف تبعث الروح..

و حين أفكر مع من ينادون بالعالمانية والتي يقصد فى جانب منها الانفصال الكامل بين الدين والدنيا.. وهم فى هذا يرى الكثيرون منهم فى الغرب منشودهم ومثاليتهم.. أجدنى أقول لهم إن هذه الحضارة بدأت تدرك الآن.. والآن فقط أن إهمالها الروحانيات يمثل نقطة ضعف ليست هينة فيها.. فإن أعلى الدول الغربية حضارة تعاني من مشكلات معنوية ضخمة تدفع ببعض الناس فيها للإنتحار.. أو الضياع.. والشقاء الذى يقول عنه المفكرون وهم يستطلعون مستقبل هذه الأمم إنه يمثل بذرة إنهيار الغرب..

لا أقول إن هذا يجعلنى أرفض الحضارة الغربية.. ولكن هل يجب وأنا - أى الأمة الإسلامية- أبحث عن طريقى للتقدم أن أخطو جميع الخطوات التى خطتها هذه الحضارة حتى اكتشف

إننى أهدرت جزءا من وجودى على أن أبحث عنه من جديد؟ أم من الحكمة أن أبدأ من حيث إنتهت؟ ولكن كيف تكون البداية..

أراها كما أراها فى تغيير نظرة الإنسان المسلم لنفسه.. ولعلاقته بالدين.. أراها فى إحساسة بالحرية.. أراها فى إيمانه بنفسه أنه إنسان.. أراها فى أنها إكتشاف وتواصل فى هذا الجزء العميق فيه.. سمه «الروح» سمه «القلب».. سمه ماشئت.. لكنه هذا «الشىء» أو «اللاشئ» الذى إذا حيا وإستوى.. تصح كل ملكات الإنسان وأعضائه.. فيعرف القلب كيف يحب.. ويعرف العقل حسن التفكير.. وتسعى الجوارح إلى العمل المثمر.. والمنتج.. والنافع، هذا الجزء من الإنسان يقتل حين يحرم من حرية الحركة.. من حرية العمل تحت ذريعة الأوامر والنواهي والتعاليم حين يظن أنها تفرض عليه من الخارج لتقتله.. وهى قد وجدت لتحييه..

وهذا الجزء من الإنسان يقتل أيضا تحت قطار المادية اللاهث الذى يحول الإنسان إما إلى «حيوان» أو «آلة»..

فهل من الممكن أن تكون هناك نظرة جديدة إلى علاقة الإنسان بدينه تبعث فيه الروح؟



الواقع .. والحب .. والقانون

لا أستطيع.. ولا أجروء أن أقول أن الإسلام كذا وكذا.. ولا أنه يقول.. ويقول.. لأن الإسلام يتسع ويمتد إلى أكبر من إحاطة أى بشر.. ولكن أستطيع أن أقول ما «أفهمه» هو كذا وما هدانى إليه تأملى هو ذلك.. وما أدركه هو هذا.. فمن يدعى أن ما يقوله هو «كلمة» الإسلام و «موقف» الإسلام من أى شىء أراه يتخطى حجمه ويجروء على إعطاء نفسه ما ليس لها من حق.. ولذا ليس من الدقة أن يقال مثلاً إننا فى حاجة لتجديد الإسلام أو تطوير الإسلام.. ولكن يمكن أن يقال نحن فى حاجة إلى تجديد أنفسنا.. تجديد «علاقتنا» التى شكلت ملامحها الأجيال السالفة والمعاصرة..

وعلاقة الإنسان بدينه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرته وفهمه عن نفسه.. سيقراً دائماً فى الدين وسيأخذ منه بمقدار ما يريد «هو».. وما يفهم «هو» وما يحتاج «هو» وما يستطيع «هو» فليس هناك أى تعميم اللهم إلا فى الأشكال الخارجية والمظاهر المشتركة لمناسك وتصرفات تجعل «الجميع» ينتمون إلى الإسلام فى شهادات ميلادهم..

ولكن هذا «التفرد» فى التعامل الحقيقى والجوهري مع «الدين» هو قضية خاصة بكل نفس وما كسبت.. ومن هنا نستشعر التركيز فى الحديث عن يوم الحساب.. ويوم الفصل فى آيات الكتاب الكريم على أن الإنسان الفرد هو المسئول عن أعماله.. وحسناته وسيئاته..

بل إن أى إنسان لن يغنى عنه من العذاب من شيء إن كان قد سلك الطريق غير المستقيم أن يقول مثلاً هذا دفعنى إليه فلان.. مهما كان قدر هذا الفلان فدائماً يتبرأ الذين «اتَّبَعُوا من الذين اتَّبَعُوا» وهناك دائماً من يقول «ما كان لى عليكم من سلطان»..

نعم فقضية الدين وسلوك الإنسان فيه هى قضيته الخاصة به وحده.. عقله.. قلبه.. عمله.. جوارحه.. ومهما سادت مفاهيم.. وتعارف الناس على صور وأشكال.. وصارت أشياء ثابتة راسخة فى أذهان الملايين وتوارثتها أجيال.. وانتشرت فى أراضى الله الواسعة.. حتى جبن أى إنسان عن الخروج عليها وأتهم أى إنسان بالكفر إن إنتقدها سيقى كل إنسان وحده هو المسئول عما «يفهم» هو و«يفعل» هو.. لا مفر من هذا المنطلق أقدم قراءتى أو دعوتى إليك بالحوار حول رؤية فى الدين تتلخص فى كلمات ثلاث:

الواقع.. والحب.. والقانون..

الواقع فى رؤية الإنسان لنفسه.. فالإنسان.. أى إنسان هو روح

ومادة.. عقل ونفس وقلب وجوارح هذا هو كل إنسان مهما بلغت درجة ضعفه أو قوته.. جهله أو علمه.. قدراته أو نواقصه.. إنه عالم مغلق طرق أبوابه العلماء.. وعرفوا بعضا من أسرارهم.. ولا زالوا يجهلون الكثير والكثير.. فإذا ما كان كل جهاز في الجسم يعمل بكفاءة شديدة ليكون الإنسان في صحة جيدة فهناك هذا الجانب غير المرئي الذي مهما عرفنا أو جهلنا عنه فإنه هناك يعمل.. يعيش.. يتفاعل.. يتحرك.. يتدبر.. بل ويسيطر في أحيان كثيرة على أداء الجسد فإن كان نشطا مزدهرا يعطى للجوارح القوة والقدرة والإمكانات..

لست بصدد تعريفه إذا ما كان هو النفس أو الروح أو بتحديد معلومات معينة عنه.. ولكن أقول فقط إنه في رؤية الإنسان لنفسه إذا ما أراد أن يتلمس الواقع أن يدرك أن هذا الوجود غير المادى له تأثير على وجوده الكلى وتفاعله مع الحياة.. فإن كانت الأوامر الصحية تقول بمعايير معينة لصحة الجسد.. وإن عدم توافر هذه المعايير ينجم عنه شكوى جسدية.. أو ما نسميه بالمرض إلى أن يستعيد الجهاز البشرى إستوائه..

فإننا لا نعلم الكثير عن هذا الوجود اللامادى.. أو اللاملموس.. إغفال هذا الوجود والتركيز على متطلبات الجسد وحده يحدث خللا في أداء الإنسان وإستوائه.. وهذا ما يشهد به كثيرون من علماء النفس والأطباء.. حيث يكتشفون أن كثيرا من الأمراض

التفسيية هي بسبب إهمال لإحتياجات لامادية.. أو إصابة هذا الجزء اللامادى من الإنسان بضرر لا يدخل فى إطار حسابات الجسد..

روية الإنسان لهذا الواقع.. وإيمانه به ستدفعه من منطلق الحرص على الإستواء أن يستجيب لمتطلبات هذا الجزء من وجوده.. غير منفصل عن وجوده المادى وإن كان فى لحظات ما يريد أن يستأثر بالإهتمام الأول.. إنها لحظات العبادة إن أدرك الإنسان..

فهى إنتباهة منه إلى أنه كما يطلب الجسد غذاءه وشرابه.. فهو مطلب هذا الجزء الغيبى فيه لأصله لعالمه.. فيعطيه مطلبه بإنقطاعه عن عالم المادة وخلوده إلى عالم الغيب فى لحظات عبادة.. فى صلاة.. فى صيام.. فى تأمل.. فى تفكير.. فى تدبر.. فإذا ما تزود هذا الجزء فيه بمطلبه.. بغذائه.. بشرابه.. بدوائه.. صبح وتعافى.. وعاد بوجوده الكلى للحياة الدنيا ينهل منها هذه المرة جسدا وروحا فى جهاده وعمله وعلمه.. وتتوق الروح لعالمها من جديد وتظمأ.. وتهن جوعاً.. فيلبى نداءها.. نداء الصلاة.. هذا الواقع يحتاج الإنسان أن يدركه.. ويقرأ فى تعاليم الدين بهذا الوعي.. فليس الأمر بالصلاة مجرد أمر طلب أن يطاع.. لكنه «فرض» يستجيب لواقع الإنسان.. الإنسان يحتاج إلى هذه اللحظات.. ولكنه لو لم تكن عنده التعاليم قد ينسى ويقسو على الروح بحرمانها من غذائها النورانى لأنه ربما يكون غير مؤهل إلا لسماع صرخات الجسد وإحتياجاته ولا يصل إلى مسامعه صرخات الروح.. فتهلك..

ولذا نجد أنَّ نداء الروح يسمعه الصالحون بالفطرة فمن قبل
التعاليم المفروضة نسمع عن كل نبي أو صديق بأنه كان ينقطعُ
للعبادة أحيان يترك فيها العالم المادى وأحكامه.. من طلب منه
هذا!.. إن كل ما فعله هو أنه لفرط شفافيته إستمع إلى نداء الروح
تريد أن تخشع لربها.. لعالمها.. تستقى منه لتحيًا..

فما كانت تعاليم الدين إلا إستجابة لإحتياج هو موجود فى
الإنسان السوى.. فإذا كان يريدُ صحة كيانه كله فإنه كما يسأل
الطبيب عن أفضل أنواع الطعام والنظم المعيشية.. وعدد ساعات
النوم.. والتمارين الرياضية.. فإنَّ معها لا يتفصل معايير لصحة
الروح.. هى إن كان يأبه لصحته سيجد لها وقعا حسنا فى نفسه..
وسيصوغها بنفسه حين يتعلم كيف يتفاعل بروحه مع تعاليم الدين.

تعاليم الدين تقولُ بأنه يحدث الإنسان على أساس هذا الواقع..
واقع كل إنسان.. وليس إنسانا محدداً.. فهناك حديث للعالم
وللإنسان العادى.. للمثيب وللمخطئ.. للضعيف وللقوى.. للمحسن
والمسء.. للغنى وللفقير.. للقادر والعاجز..

كل إنسان بدءاً من واقعه هو يستطيع أن يتعامل مع تعاليم الدين..
أنت كما أنت.. وأنا كما أنا.. ليس مطلوباً أن يكون أى إنسان
إنساناً آخر بل مطلوب فقط أن يكون نفسه.. ولكن أن يرى نفسه
فعلاً.. يرى إمكاناته.. يرى قدراته.. إمتيازاته.. نواقصه.. محاسنه..

فإذا ما عرف ذلك فإنه سيختار هدفه بحرية شديدة.. وهنا يأتي الحب.. فمن أحب شيئاً كأنه.. إن حتى الطفل منذ الصغر يقول «أحب» أن أكون طيباً.. «أحب» أن أكون معلماً.. أحب.. وأحب..

فمن أحب أن يكون جسداً قانياً.. فله هذا بكامل حرته.. ولكم رأينا الكثيرين ممن ينكرون الجانب الروحي للإنسان يقولون بأنهم ليسوا أكثر من «حمار نافق».. وكان لهم هذا لأن عقيدتهم جعلت تراكمات شديدة بين مسامعهم وبين نداء الروح داخلهم.. وبين بذرة الفطرة التي أودعها الله كل إنسان.. فلم يلبوا نداءها.. فماتت فعلاً.. ولم تبق منهم إلا أجساداً.. سلبت الحياة.. وبقت تراباً..

أمّا الذين يؤمنون بامتداد الحياة.. بأن للإنسان وجوداً ممتداً بعد هذه الحياة.. وبوجود حياة آخرة.. فإنهم سيحبون أن يكون هذا الإمتداد صالحاً.. يانعاً.. مشرقاً.. ودون تصوير للغيب.. ودون تجسيد للمعاني.. فإن هذا الحب سيدفعهم إلى الحرص على صحة هذا الكيان.. هنا وجب عليهم أن يعرفوا شيئاً عن «القانون» معرفتي بالقانون تجعلني أكثر قدرة على أن أتعامل مع وجودي الكلي بأفضل صورة.. مثل البذرة حين تغرس في الأرض الطيبة.. إن بداية الرحلة هي حبي لهذه الزهرة التي جعلتني أختار البذرة والأرض الطيبة.. لكن هذا وحده لا يكفي.. فهناك معلومات مطلوبة عن كمية المياه.. أوقات الري.. درجة الحرارة.. أشعة الشمس.. إزالة العشب..

القانون يقول إن أفضل أداء لزراعة هذه الثمرة هو مراعاة كل ما أعرف من قواعد وإحتياجات لتخرج يانعة.. يافعة.. مشرقة.. فإن كان هناك ما لا أعرفه فربما تكشفه لى التجربة.. والخبرة.. على فقط أن أكون مخلصا فى أداء ما أعرف..

تعامل الإنسان مع نفسه إن كان مثل التعامل مع «بذرة» فى أرض صالحة ستجعله يتفهم أكثر لما يريدُ الله به فى دينه.. إنه فقط يعلمه كيف يكونُ فى حالة إنسجام وتوافق مع القانون لينمو وينمو صحيحا معافى وليس هذا قهرا.. أو أمرا صادرا لذاته.. ولكنه تقرير لحقائق كلما إتسع إدراكُ الإنسان.. ووعيه ورقبه كلما إستطاع أن يصل إلى ترانم أكثر مع القانون وكلما نما.. وتعافى..

وهذا دعاء كل مؤمن حين يطلب من ربه أن يكون مع «الصديقين والنبيين والصالحين والشهداء».. فكما أن هذا العالم تولد فيه رضع.. وتنمو صبية.. أطفالا.. شبابا.. وشيوخ.. فهذه مراحل العمر التى تعمل بها قوانين الحياة الطبيعى أن ينمو الرضيع فيصبح طفلا.. ثم شابا.. مع إختلاف درجات الصحة والنمو التى تؤثر على القدرات.. فيكون هزيلا أو يافعا..

النمو الروحى للإنسان له قوانينه.. التى وإن لم نلم بها فإن «الخبير» بها يعلمنا ويوجهنا.. وليست أبدا كَمَا جامدا سيعلمه الإنسان مرة واحدة.. أو يستوعبه كمعلومة.. وكفى.. ولكنه ينهل

بمقدار على قدر طاقته التي لا يكلفه الله إلا وسعها.. ولكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت..

إذا ما رأى الإنسان واقعه حقاً.. وأحب لنفسه وجوداً أفضل.. وبدأ يتعلم كيف يكون فى إنسجام مع القانون فإنه يكون قد فتح حواراً بين نفسه وبين تعاليم الدين.. ولكل تجربته.. يطلب فيجاب.. يخطئ ويستغفر.. يحسن ويشكر.. إنها تجربته.. إنها حريته.. إنه حديثه الخاص بينه وبين ربه.. يحار.. ويسأل.. ويجد الإجابة.. يجرب ويخطئ ويضل الطريق.. يسأل ويطلب ويلبى النداء.. يعمل.. يجتهد.. تتناقل التجارب بين إخوان متحايين.. يعجز.. ويقدر.. يقوى.. ويضعف.. تختلط عليه الأمور.. وتتضح الرؤيا.. لكنه إنسان يعيش بكله.. بعقله وفكره.. بقلبه ووجدانه.. بجوارحه.. يترانم مع القانون مرة.. ويتخاصم معه مرات.. فيتعب ويمرض.. فيكتشف.. ويتعلم.. ويتعرض للنفحات الحقية.. ويدرب على الإستماع إلى نداء الروح.. ويلبى.. ويشفى.. ويعمل.. ويسعى ويتعلم.. ويحار.. وتشق الأمور عليه.. ويغضب.. ويستغفر ويرضى.. ويقلق.. ويطمأن.. ويشكر.. لكنه فى كل مرة يجتهد فى أن يرى واقعه.. وأن تكون الرؤية صحيحة على ما يدرك وما يقدر لا ظن ولا وهم ولا خيال..

ومن هذا الواقع.. يحب أن يكون أفضل.. ويتعلم من الدين بلا توقف كيف يكون فى ترانم مع قانون السعى إلى أفضل.. فيجتهد

ويعمل ويتعبد.. ويصل.. ثم يحار.. فيعاني.. ويبحث.. ويضاء له الطريق.. فيسلك.. وينجح.. وينمو.. ويعرف.. ويشكر.. ويسعى من جديد ويتعرض لتجربة جديدة.. يقرأ هذه المرة بمحصلة ووعي أفضل.. فيحسن الأداء.. ويحمد.. ويسلك من جديد.. فيخطئ.. فيندم.. ويستغفر.. ويتعلم.. ويعود للحق.. فيفرح.. ويشكر..

إذا ما طبقنا هذا المفهوم على سعى الناس في رحلة الحياة فسنجد أن التعميم لا ينطبق إلا على خطوط عريضة جدا هي وجود عوامل معينة يحكمها قانون فوق إدراكنا لكن تفاعلها ينتج ظواهر محددة يعلمنا الله جزءا منها في كتابه.. فهناك قانون يقول إنه من أعطى وإتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ومن بخل وإستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى.. وهناك قانون يقول أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.. وآخر أن من قتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون.. وأن الله يجيب دعوة الداعى إذا دعاه.. وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.. وأن هؤلاء يدلل الله سيئاتهم حسنات..

قوانين وقوانين حقيقة.. علوية تتأملها إيماننا وعلمنا ونحب أن نكون فى ترانم معها.. ولكن كل إنسان ستكون له تجربته الخاصة التى يعيشها بحريته - فيما يخص إراداته وإختياره [ويتفاعل مع الأشياء بما يجعله فى مكان ما من مجريات الأمور..] فإن مر بتجربة «التائب من الذنب» فعلا فإنه سيكون كمن «لا ذنب له»..

وإن قام حقا في معنى «تقوى الله» فالقانون يقول أن الله سيجعل له مخرجا.. إذن سعيه هو.. مسئوليته هو أن يكون حقا في معنى «التائب» ومعنى «التقوى».. لاظنا ولا وهما.. وليس هو الذى سيقول إن كان حقق هذا أم لا.. هو فقط سيعمل عقله وقلبه وقدراته وصدقه فيما يرى فعلا وحقا.. مع الطمع والأمل.. لكن القانون هو الذى سيفعل ويتفاعل..

إذن فالتعميم هو فى سريان القانون.. ولكن تطبيق القانون فيما يخص كل إنسان فهى قضيته وتجربته الحرة.. إعتقادى أن الإنسان إذ ما سلك هذا المنهج وهو الجهاد فى رؤية واقعة.. وحبه للأفضل.. وسعيه للتوافق مع القانون.. فإنه سيشعر بحرية رائعة.. تحرره من سجن ما يفرضه أى إنسان على إنسان بدعوى أنه هو المتحدث بإسم الله ورسوله.. إن هذه الحرية من كل ما نكبل به أنفسنا من إتباع رؤى الآخرين سواء السلف أو المعاصرين هى أول خطوة لبعث الروح..

وبالحرية لا أقصد إستكبارا أو رفضا لرؤى الآخرين.. على العكس تماما فلکم نحن بحاجة إلى التواصى.. والتناصح.. والإستفادة من فكر الجميع.. ولكن لا يستطيع الإنسان أن يستفيد حقا إلا إذا كان حرا من داخله.. فكره ومشاعره.. ورؤيته لنفسه ولتعاليم دينه..

نحن بحاجة إلى مجهود كبير ليصدق الإنسان أنه حر.. حر..

وحين ينفض عن نفسه غبار وتراكمت مفاهيم كبلته وسلبته هذه الحرية.. فإنه يستطيع أن يبدأ علاقة مع دينه.. لا تخلو من الروح..

نفض الغبار ليس معناه بالضرورة أنَّ المفاهيم الموروثة أو الشائعة خاطئة.. فلسنا بصدد الحكم على أيها صائب أو خطأ.. حين نتحرر أولاً يمكننا أن نعرف معا ما قبله أو لا قبله..

حين نتحرر من الإحساس بأنَّ هناك من فكر لنا ولسنا بحاجة لإعمال العقل.. حين نتحرر من الإحساس بأنَّ هناك حلولاً جاهزة ومجهزة يصيغها رجل الدين لنا للحلال والحرام وليس علينا إلا التنفيذ.. حين نتحرر من صورة الإنسان لنفسه بأنه في علاقته بربه مثل العبد الذليل الذي لا يملك إلا الطاعة مقهوراً كارهاً.. حين نعلم أن العبودية لله هي منتهى الحرية.. ونحاول أن يعلى الإنسان من قدر نفسه لأنه هو خليفة الله على الأرض.. بما أعطاه الله من قدرة العقل.. وبما حمل نفسه من الأمانة..

فإننا سنقول هيا معا نقرأ ديننا من جديد.. أى نقرأ أنفسنا.. وواقعنا.. ونحدد ما الذى نحبه ونتعلم القانون..

هل نستطيع؟ التاريخ يقول نعم.. وأفراد صالحون يسعون فى الأرض بالخير والعلم النافع.. وجودهم يقول نعم.. والقانون يقول إن هناك دائماً ومضة من نور لم تفارق أرضنا فى أحلك درجات

الظلام.. يستمرها الصالحون.. فتكبر وتنمو.. وتثمر.. وتزدهر
وتبنى حضارات.. ثم ينشغل الناس بما حققوا من ماديات.. ويتلاها
بينهم عن مصدر النور والضياء.. فيخبو على الأرض.. وينحصر
في أفراد من الصالحين.. يغتربون في هذا العالم وعن سلطانه..
ومن ضيائهم يجتذب الناس من جديد.. ويطلبون.. وينتشر النور..
وإننى صديقى فى محاولة لتلمس الطريق أملا فى إقامة علاقة
حرة.. حية.. متجددة.. مع تعاليم الدين.. وحوار مع النفس حول
تفاعلها مع هذه التعاليم.. سيكون لنا بمشيئة الله لقاء وحوار..
متجدد..

عائشة رافع

رقم الإيداع: ٩٢ / ٩١٦١
الترقيم الدولي: 1 - 01 - 5337 - 977

الجميع بما فيهم علماء المسلمين ومفكروهم
يقر بما وصلت إليه الأمة من تخلف ..
والجميع يؤكد أيضا ويوقن ويؤمن بأن هذا
التخلف يناقئ شكلا وموضوعا كل ما جاءت
به تعاليم ديننا الحنيف ..

إذا كان هناك إجماع على هاتين الحقيقتين
فالسؤال هو :

لماذا لم ولا تستفيد الأمة الإسلامية من
دينها حتى باتت صورتها أمام العالم بهذا
التشويه .. وصورة الإسلام بعيدة تماما عن
حقيقته وجوهره ؟

لماذا تملأ المساجد بالمصلين ولا تخلو
الكعبة المشرفة من الطائفين .. ولا نكون
كمسلمين على خلق عظيم ؟

